أسس تشكل المضمون الثقافي بالمغرب

(بين الوازع بالقرآن والوازع بالسلطان)

يوسف عروج

كلمة قبل البدء

إن فكرة هذا الموضوع الذي أقدمه اليوم في إطار ندوة الأستاذ، لها حكاية تعود إلى بداية نشأة هذه الندوة نفسها، عندما كان الأستاذ عبد القادر بوزيدة يزرع بذورها الأولى، من خلال تسطير برنامج لها يضمن لها الإنطلاقة المباركة، وكنت من ضمن الذين طلب الأستاذ عبد القادر منهم تقديم ما آراه مناسبا فيها، مما يدخل في اهتماماتي، وكنت وعدته بفعل ذلك من خلال تقديم موضوع له صلة وثيقة بثقافة المغرب - عبر مراحل تاريخه - محاولا فيه تحديد بعض الثوابت في هذه الثقافة، وفي الحقيقة إن الدافع الأساسي لهذا الاختيار يعود إلى الواقع المعيش اليوم، واقتضى الأمر مني العودة إلى المصادر التي رأيتها ضرورية للتوثيق والوقوف على بعض الشواهد، والأحداث والمواقف ذات الصلة بالموضوع، غير أني

وجدت نفسي أنتقل من الرصد والتسجيل إلى شيء يشبه "التحليل" و"التركيب" وما يشبه "الإستقراء" و"الإستنتاج" فهالني الأمر، فتوقف ثم أحجمت وقلت: هذه غاية لا أدركها، لصعوبة "الدرب" وقصر "الباع".

وكان حرص الأستاذ عبد القادر بوزيده شديدا. وكان احجامي لايقل شدة، وحاولت إثناءه عن دفعي إلى "العودة" إلى هذا الأمر، وكنت وجدت في الإدارة وأعباء شؤونها والتهامها لجل الوقت والجهد.. ماجعل المدة تتمطط بين الفكرة الأولى وما أقدمه اليوم، لكن الأستاذ عبد القادر كان أحرص، ولم يزده تعللي إلى تشبثا بالموضوع. وكان "الحصار" بأن حدد لي موعد تقديمه.. فلم أجد مفرا من الأمر، وقلت منشدا مع أبي الصعاليك عروة بن الورد:

و"مبلغ نفس عذرها مثل منجح"

ووسمت الموضوع بـ: "**أسس**" تشكل المضمون الثقافي بالمغرب

(بين الوازع بالقرآن والوازع بالسلطان)

وبعد: لقد عرف المغرب في مراحل تاريخه الإسلامي أحداثا كثيرة، ودعوات متعددة، ودولا مختلفة وعهودا متمايزة، وهو مايجعل الدارس يلاقي صعوبات جمة في المنهج والموضوع.

والموضوع له صلة بالبنية العقلية والدينية (المذهبية خاصة)... كما تشكلت في المغرب عبر العصور والعهود. وتركيزي ينصب بالدرجة الأولى على مرحلة التأسيس التي تبدأ من الفتح الإسلامي إلى عهد العلامة ابن خلدون (ق 8 هـ).

قسمت الموضوع إلى ثلاثة عناصر، رأيتها - بحسب زعمي - تشكل المضمون الثقافي بالمغرب وهي:

1 - **الذاتية:** (الوازع بالقرآن)

2 - **النفعية:** الغائية والعملية

3- **الشمولية:** (المذهبية والفكرية/ الوازع بالسلطان)
وهذه "الأسس" متداخلة في مابينها، يصعب الفصل بينها منهجا وواقعا.

دلالة العنوان:

إن الذي أعنيه "**بالمضمون الثقافي**" هو ذلك النسيج من الثقافة الذي استقر في العقل الجمعي وهو الذي يميز هذا المجتمع عن غيره. من خلال تشكله في "بينة" ثابتة.

وأما مدلول المغرب فهو "**الغرب الإسلامي**" بمفهومه السياسي لا الجغرافي، ويشمل البيئات المغربية الثلاثة والأندلس، ولقد تحدد هذا المفهوم بعد وقعة الزلاقة سنة 479هـ بقيادة خليفة المرابطين يوسف بن تاشفين - من الصف الإسلامي - حيث أصبح الأندلس تابعا للمغرب (مراكش)، واستمر ذلك إلى سقوط دولة الموحدين في الثلث الأخير من القرن السابع الهجري.

والمقصود بالعنوان الفرعي (**الوازع بالقرآن والوازع بالسلطان**) هو ماله علاقة بمفهوم الدين عموما اعتقادا وتوسلا، وإمامة وخلافة وسلطانا.

"**فالوازع بالقرآن**" يشمل هنا الدين الإسلامي الحنيف بكل أصوله وفروعه، في إطار النظرة الكلية التي لاتفصل بين الدين والرجال، وبين الدين والرحاب، وبين الدين والأداة، فالإسلام والرسول - صلعم - وآله، والصحابة والفاتحون، والعرب، والعربية وعلومها، والمشرق، والحجاز، ومكة (القبلة والمحجّة)، مهد النبوة، ومهبط الوحي والرسالة، ومنبع العلم الحق... الذي يقرب إلى الله زلفى هذا كله يشكل مفهوم الوازع بالقرآن في المداخلة.

و"**الوازع بالسلطان**" هو كل ما له علاقة بالحكم ونظامه، المالك للقوة والجبروت المستمد من الوازع بالقرآن - زعما أو حقيقة - والمضاف إليها "السياط" و"السيف" عندما يحتاج الأمر إلى ذلك.. وكم هي كثيرة دواعي استعمال ذلك في التاريخ في نظر "السلطان". وهو الذي كرس الاستبداد

بالرأي والعقيدة (والمذهب) مما جعلت المغرب لايعرف التنوع الذي يؤدي إلى "التفاعل" الإيجابي، وإنما يعرف "**الواحدية**" التي تعقب أختها ولاتتفاعل معها. "**فالواحديات**" هي الأساس إما متجاورات أو متعاقبات.

المضمون الثقافي بالمغرب: (بين ابن طملوس وابن خلدون)

إن محاولة تحديد "الأسس" التي انبنت عليها الثقافة في المغرب تقتضي النظر فيما قدمه السلف من جهود طيبة في الموضوع.

ولعل ماقام به كل من ابن طلموس (ق 6هـ) والعلامة ابن خلدون (ق 8هـ) في بلورة هذه الأسس بطريقة أو بأخرى يعد خير معين في هذه المداخلة.

فابن طملوس وهو شخصية مغمورة أو شبه مغمورة بالنسبة إلينا، صنع مقدمة لكتابه "المدخل لصناعة المنطق" حدد فيها بعض "الأسس" لتشكل هذا المضمون الثقافي إلى عهده - عهد الموحدين - ولحسن الحظ أن أحد الدارسين المعاصرين من المغرب، أجرى دراسة عنوانها بـ (حول المضمون الثقافي للغرب الإسلامي من خلال كتاب المدخل لصناعة المنطق لإبن طملوس) (1) لفت فيها الانتباه إلى أهمية ماقام به ابن طملوس في كتابه هذا وبخاصة مقدمته.

ولقد فضلت أن يقدم إبن طملوس صنيعه بنفسه إليكم – من خلال مقتطفات – وبخاصة حديثه عن العلوم النافقة في المغرب إلى عصره:

يقول إبن طملوس: «... وكل هؤلاء لم يكن عندهم علم وإنما وصلهم من العلم ما اضطروا **إليه في الأحكام** ونقل إليهم من التابعين وتابعي التابعين - رضي الله عنهم - من فروع المسائل فحفظوها، ولكون الناس **محتاجين** إليها بسبب الأحكام **عظم حاملوها وجل مقدارهم**.. وصار الحاملون لهذه المسائل عند العامة علماء بإطلاق، وظنت العامة وأرباب المسائل أن هذا هو **العلم الذي يجب أن يطلب**، ولم يظهر لهم علم سواه، فكانت الرياسة في ذلك الزمان بهذا

العلم واعتقدوا مع ذلك أن هذا العلم هو العلم الحق وأن ما اتصل بهم من المسائل عن الأئمة التي استنبطوها إنها من عند الله تعالى لكونهم إنما قبلوها **عن عدل عن الإمام الذي قلدوه عن رسول الله** - صلى الله عليه وسلم - عن الله تعالى» [2]

إن النص ناطق بنفسه عن نفسه، وإذا لم يكن بد من تدخل فهو لايعدو أن يكون تلخيصا له وباختصار شديد نجد - حسب النص - أن المغاربة اهتموا بالعلوم العملية وفروع المسائل، وهذا هو العلم الحق عندهم، وأن أهله هم العلماء بإطلاق، فلهم الصدارة والرياسة، وأن هذا "العلم الحق" يؤخذ بالسند المتسلسل التالي:

عن عدل عن الإمام المقلد عن رسول - صلعهم - عن الله تعالى (مصدر العلم الحق الذي لايضاهيه علم)

ودون أن أطيل بالتعقيب، أورد مقتطفات أخرى من مقدمة العلامة ابن خلدون تسير في الاتجاه نفسه، يقول ابن خلدون معللا لشيوع مذهب الإمام مالك في المغرب:

«وأما مالك - رحمه الله تعالى - فاختص بمذهبه أهل المغرب والأندلس، وإن كان يوجد في غيرهم، إلا أنهم لم يقلدوا غيره إلاّ في القليل، لما أن رحلتهم كانت غالبا إلى الحجاز، وهو منتهى سفرهم. والمدينة يومئذ دار علم، ومنها خرج إلى العراق، ولم يكن العراق في طريقهم، فاقتصوا على الأخذ عن علماء المدينة، وشيخهم يومئذ وإمامهم مالك وشيوخه من قبله وتلميذه من بعده.

فرجع إليه أهل المغرب والأندلس وقلدوه دون غيره، ممن لم تصل إليهم طريقته وأيضا البداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس، ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق، فكانوا إلى أهل الحجاز أميل لمنافسة البداوة» [3]

ويضيف في موطن آخر: «ولهذا لم يزل المذهب المالكي غضا عندهم لم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كماوقع في غيره من المذاهب» [4]

وإذا كان ولابد من إيجاز ما ذهب إليه العلامة ابن خلدون في التعليل لشيوع مذهب الإمام مالك إمام دار الهجرة في المغرب من خلال ماقدمت له من مقتطفات فإننا نجد ابن خلدون في تعليله هذا يتقاطع في بعض جوانبه مع سلفه ابن طملوس، فذكر سببين وجيهين لذلك هما:

1 – **أن رحلة المغاربة** محصورة (أو تكاد تنحصر) في الحجاز (للحج)

2 – **أن بداوة المغرب** مناسبة لبداوة الحجاز.

وإذا كان من قول على ما ذكره ابن خلدون، فهو أن نظرة المغاربة إلى الذين كما مر معنا هي نظرة كلية، مما جعل "الحجاز عندهم: منبع الدين ومنبع العلم الحق".

ولاخلاف في الجوهر بين ماذهب إليه ابن طملوس وماذهب إليه ابن خلدون فأصل العلم عند المغاربة بحسب ماتوصل إليه ابن طملوس هو الله تعالى، وأصل العلم بحسب ابن خلدون هو **الحجاز**، وكل ذلك يتناسب ونظرة المغاربة إلى الأمور - وبخاصة في مجال الدين وهي نظرة "كلية تقديسية" **فالحجاز** هو "**مهبط الوحي**" وبالتالي فهو **منبع العلم الحق، والرسول** - صلى الله عليه وسلم - ولد بالحجاز وعاش في الحجاز ونزل عليه الوحي (العلم الحق) بالحجاز فأخذه الناس عنه من **الحجاز**.

إن "**الوازع بالقرآن**" هو العنصر الحاسم - في زعمي - في محافظة المغاربة على هذا الالتزام بالأصلين (الله والحجاز) لأنه - أتيحت للمغاربة - بعد ابن خلدون - أن يوسعوا في رحلتهم إلى غير الحجاز ولكنهم لم يغيروا وحافظوا على ثوابتهم" - في مجال المذهب على الأقل -

وهكذا تجلى "الأس" الأول وهو: الذاتية في التأسيس للعلم وهو متداخل مع طبيعة العلم الذي أخذوه من منابعه - بحسب الطريقة المتبعة لديهم.

إن "**العلم الحق**" الذي وصل إليه المغاربة (بالسند وبالمحل) هو علم رواية، أساسه، الحفظ، وهو علم فروع، لحاجتهم الماسة إليه. وهو إتجاه

نفعي لافت للنظر - ومامرّ من مقتطفات يؤكد ذلك - هذا العلم حقق لحامليه "الرياسة" و"**الحظوة**" وكل مخالفة في العلم هي في الحقيقة مخالفة على هذه "**الرياسة**" و"**الحظوة**"، وبالتالي هي "إعلان حالة الإستنفار القصوى والحرب الشعواء" وهذا ما تجلى في الواقع عندما تعامل حكام المرابطين مع **الإمام الغزالي** في بداية أمرهم حيث احتاجوا إليه بوصفه "حجة الإسلام" لكسب تأييد خلفاء بني العباس، فاستعلموا "بطاقته" ثم لما تمكنوا رأوا أن كتبه وبخاصة "الإحياء" تمثل خطورة على "**سلطتهم**" و"**رياستهم**" لما تحمله من هجوم على "**الفقهاء**" (**علماء السلطان**)، وإن ذيوعها وشيوعها وإطلاع العامة عليها يقوض أركان "سدة الرياسة" فكان لزاما **إحراقها** وتعقب من يوجد لديه شيء منها [5]، وهذا ما يؤدي إلى الشمولية.

إن هذه "النفعية" التي استغلها المرابطون واستعملوها مع الإمام الغزالي هي التي بصّرت محمد ابن تومرت لاستعمال "البطاقة" نفسها ولكن بكيفية مغايرة في الشكل.

لقد زعم ابن تومرت أنه التقى أبا حامد الغزالي في رحلته المشرقية [6]، وأعلمه بما فعل حكام المرابطين وفقهاؤهم بكتبه وبخاصة "**الإحياء**" وزعم أن الإمام الغزالي دعا على هؤلاء بالزوال، وعلى يدي ابن تومرت نفسه استعمالا لبطاقة الإمام "حجة الإسلام من جهة" - الوازع - بالقرآن - لتقويض أركان سلطانهم - لقد اعتمد ابن تومرت المخالفة في العلم باعتماده العلوم العقلية بمقابل العلوم النقلية السائدة في عهد المرابطين لتقويض أركان هذه السلطة، وتوسل بكل وسيلة تحقق هذه الغاية، بما فيها **الدجل والشعوذة** إذا لزم الأمر، **وهو من هو في العلم** حيث عاد من رحلاته المشرقية "يتقد علما" واستعمل "السيف" وهو "الداعية" ثم هو "المهدي المنتظر" الذي سيملأ الأرض عدلا، بعدما ملئت جورا.

يقول إبن تومرت: [7]

إني وفي النفس أشـياء مخـبأة | لألبسـن لهـا درْعـا وجلـبـابا
كيـما أطهـر دين! الله من دنـس | وأوجـب الفضـل للسادات إيجابا
تا! الله لو ظفـرت كفـي بمطلبها | ما كنت عن ضرب أعناق الورى آبى

إن دعوة شعارها العلم (أعز ما يطلب) [8] وتحمل في أحشائها "ضرب أعناق الورى" لن تستمر وإن تمكنت، وهنا يظهر التناقض عند ابن تومرت.

وهذا الإمام سحنون تلميذ (الإمام مالك) إمام دار الهجرة يضيف إلى "الوازع بالقرآن" للتمكين "للمذهب المالكي" "الوازع بالسلطان" من خلال منصبه في القضاء وكانت "مدونته" هي "العمدة" في "المذهب" عند المغاربة، فقمع المخالفين من أهل "الأهواء والبدع" (المعتزلة وغيرهم) وهذا خليفة الموحدين المنصور يأمر بإحراق كتب المذهب – بعد تجريدها من كلام الله وحديث رسوله –صلعم– وعلى رأس هذه الكتب "المدوّنة،ويلزم حكام الموحدين العامة بنبذها والاشتغال بما قدمه لهم مهديهم محمد ابن تومرت بديلا عنها وهي "المرشدة" التي أصبح حفظها واجبا على الجميع وليس لأحد من عذر في ذلك لأنه صنعها باللسانين: العربي والبربري.

ولقد شدد خلفاء الموحدين على هذا الإلزام من خلال مناشيرهم إلى الأمصار، ... "ويلزم العامة ومن بالديار بالقراءة العقيدة التي أولها: "اعلم أرشدنا الله وإياك" وحفظها وتفهمها..

من أولها إلى آخر القول في المعجزات.." [9] وأما المخالفون الضالون "فإن لن يبادروا إلى التخلص من عنادهم وعنتهم والانفصال بالعلم عن ذلك" فقد وجب عليهم حكم الكتاب، ولاعنت في إراقة في دمهم لامحالة" [10]

وجعل هؤلاء الحكام "جهاد المخالفين ومحو آثارهم أهم من جـهاد الكفرة" [11]

وإذا كان محمد ابن تومرت (زعيم دعوة، ومهدي أمة، العالم، المتكلم، الأشعري..) لايتورع في "ضرب أعناق الورى" للوصول إلى مبتغاه، فكيف الحال "**بالسلاطين**" و"**الجبابرة**" و"**المستبدين**" الذين يستندون إلى دعوته و"قداسته" بوصفه "**الإمام المعصوم المهدي المعلوم**" الذي **اسمه اسم النبي** ونسبه نسب النبي - صلعهم - ... كما جاء في خطبته التي ادعى فيها أنه هو المهدي المنتظر.

ونجد في رسائل حكام الموحدين الديوانية - التي يرسلونها إلى الأمصار تنصيصا بزيارتهم قبر المهدي والتبرك به [12]، وهم **الزاعمون** بأنهم يناصرون **العلوم العقلية**.

فهذا ابن رشد ينكبه النظام الذي احتفل به أولا، وذلك مايجسد أزمة هذا النظام نفسه في المغرب - وبخاصة على عهد الموحدين.

إن المضمون الثقافي قد بدأ يأخذ شكله الثابت ولهذا لم يستطع هذا النظام القضاء على "**المذهب المالكي**" وإن امتحن رجاله، وما احتفال حكام الموحدين بالفلسفة ورجالها إلا خدعة - في زعمي - تنكشف "بنكبة" ابن رشد إرضاء **للعامة**، يروي ابن رشد عن نفسه قصة تعرض العامة له وهو يريد صلاة العصر بالمسجد مع ابنه فكانت هذه الحادثة أوقع على نفسه من كل ماجرى له.

وما **العلم عند العامة إلا علم الفروع**، وبخاصة **مذهب إمام دار الهجرة مالك ابن أنس**، فهو العلم الحق، وماسواه الكفر والزندقة.

لقد عرف المغرب دعوات كثيرة "زالت بعد عهود، ودالت دول، والمغرب محتفظ "بمذهبيته" ومحتفظ بنظامه الثابت على "**شموليته**" بعد أن تشكلت ثقافقته وفق أسس محددة.

ولهذا فإن التغيير **في المضمون الثقافي** لا يتأتى – في نظري وحسب زعمي – **إلا بتغيير أسسه**، التي تكون بديلة لما هو عليه الحال:

1- أن تكون الموضوعية بديلا عن الذاتية (من خلال الفصل بين الأمور)
2 - أن يكون الاهتمام بأصول العلوم وربط العمل بالنظر بديلا عن الاحتفال بالعلوم التطبيقية بمعزل عن العلوم النظرية وعن النفعية والغائية.
3 - أن يكون الحق في الاختلاف من أجل التنوع والغناء، بديلا عن الواحدية والشمولية المؤدية إلى النبذ والإقصاء.

هذه الأسس المقترحة أزعم أنها البديل الذي يخرج المغرب من دوامة الحلقة المفرغة التي يعيشها من خلال أسس مضمون ثقافته المتحكمة فيه.

الإحالات والإشارات:

(1) – ينظر حول المضمون الثقافي للغرب الإسلامي من خلال: المدخل لصناعة المنطق لإبن طملوس/ عبد المجيد الصغير ـ كلية الآداب الرباط/ مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط: عدد 15 1989/1990.

(2) – المدخل لصناعة المنطق تأليف الشيخ الإمام ابن الحجاج يوسف بن محمد بن طملوس طبعة مجريط سنة 1916. ص 9 و10

(3) – مقدمة إبن خلدون طبعة دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة ـ 1982 ص 805.

(4) – المصدر نفسه ص 807

(5) – تنظر: "نصوص سياسية عن فترة الإنتقال من المرابطين إلى الموحدين" د/ حسين مؤنس. صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد/ العدد الثالث 1374–1955 المجلد الأود ص 113 ورد في منشور صادر عن الخليفة تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين (من أواخر عهد المرابطين وهناك غيرها قبل ذلك)،... واعلموا، رحمكم الله، أن مدار الفتيا ومجرى الأحكام والشورى في الحضر والبدا، على ما اتفق عليه السلف الصالح، رحمهم الله من الاقتصار على مذهب إمام دار الهجرة أبي عبد الله مالك بن أنس، رضي الله عنه، فلا عدول لقاض ولا مفت عن مذهبه، ولايأخذ في تحليل تحريم إلاّ به، ومن حاد عن رأيه بفتواه، ومال من الأئمة إلى سواه، فقد ركب رأسه واتبع هواه، ومتى عثرتم على كتاب بدعة أو صاحب بدعة، وخاصة وفقكم الله ـ كتب أبي حامد الغزالي، فليتتبع أثرها، وليقطع بالحرق المتتابع خبرها ويبحث عليها، وتُغلظ الأيمان على من يتهم بكتمانها" ص 113

(6) – ينظر الكامل لإبن الأثير/ ط 1966 المجلد 10. ج 1 ص 2001 وعصر المرابطين والموحدين/ محمد عبد اللّه عنان القاهرة 1966 ج2/ 163/ والدعوة الموحدية بالمغرب/ عبد الله علام ط1/ القاهرة 1964 ص. 76 ومفهوم الملك بالمغرب/ محمد ولد داداه ط 1977 ص 132

(7) – خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء المغرب) للعماد الاصفهاني تحقيق المرزوقي/ واخرين تونس 1973 قسم 1/70 والوافي بالوفيات للصفدي/ دمشق ط /1953/ ج3/ 323 (حيث نجد رواية أخرى لهذه الأبيات)

(8) – ألف ابن تومرت كتابه (أعز مايطلب)، عنوانه وهو مأخوذ من المقطع الأول فيه (أعز مايطلب وأفضل ما يكتسب وأنفس ما يذخر وأحسن مايعلم العلم..) تحقيق د/عمار طالبي. ط المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع/ الجزائر 1985 ص 29

(9) – تنظر الرسالة الثالثة والعشرون/ رسائل موحدية/ نشر لفي بروفنصال الرباط 1941 ص132

(10) – تنظر الرسالة الثالثة والعشرون/ رسائل موحدية/ نشر لفي بروفنصال الرباط 1941 ص132

(11) – تنظر الرسالة الثالثة والعشرون/ رسائل موحدية/ نشر لفي بروفنصال الرباط 1941 ص132

(12) – تنظر الرسالة السابعة عشرمجموع رسائل موحدية ص 86 و91.